هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ [الروم] يعنى : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا فى أنفسهم ، فيأتى لهم بالدليل مرة فى أنفسهم ، ومرة فى السموات والأرض .

الدليل فى الأنفس يقول لك : فكِّر فى نفسك . أى : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال فى الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل فى مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون فى جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما فى جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْى إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذى لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامتْ الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل فى نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهى مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة فى القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التى لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك.

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هى التى تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل فى إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل فى عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأة تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك فى شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل فى الأمعاء وفى المثانة ، ففى لحظة يزيد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا فى أنفسنا ، ويكفى أن نقرأ : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فدعانا ربنا إلى البحث فى أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما فى السموات والأرض من آيات ، أما نفسى فهى أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. (٨) ﴾ [الروم] أى : فكّروا فى أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومرائهم ، فحين تجادل

الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع في مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر في نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبى ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : يا مَنْ تفكِّرون في صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر .. الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦)﴾ [سبأ] أى : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك في النفس الرغبة في العُلُو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعنى : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر في أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السموات والأرض ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم]

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر فى السماء والأرض على التفكّر فى النفس ، هى قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧)﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السموات والأرض بما فيهما

من أرض وسماء وشمس وقمر .. إلخ فهى كما هى منذ خلقها الله لم تتغير ، وهى تؤدى مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهى بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآيات والأدلة فى أنفسكم وفى السموات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهى الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر فى نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله - عز وجل - فحينما يضرب لى مثلاً يضرب لى بالأقوى ، فإنْ لم أُطقْه يأتى لى بالأقل ، والمستفيد هو الذى ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٨) ﴾ [الروم] أى : من الكواكب والأفلاك والنجوم التى نشاهدها فى جوِّ السماء ، وكانوا فى الماضى لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هى السموات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢) ﴾ [فصلت]

فأين السماء من الكواكب التى نشاهدها ؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة ، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هى السموات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفلاحسة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذى مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون فى قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعى .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات - مع أنهم كفرة - يعلمون الغيب لأنهم توصَّلوا بحسابات دقيقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة - كما سبق أنْ قُلْنا - ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذى أعطانا الله المقدمات التى توصل إليه ، وقد توصّل

العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا في ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه أيضاً من الآيات التي تُقدِّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الروم] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهي مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشيء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أي : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..

(٥)﴾ [يونس] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باق ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم] فبعد أن ينقضى هذا الأجل الذى أجَّلَه الله تُكوَّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشىء الثابت ، إنما يزول وينتهى .

ثم يقول سبحانه ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم فى تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم فى عقابهم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا فى المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظَلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم فى الدنيا عاقبه الله تعالى فى الآخرة ، ثم أنتم ترونْ مبدأ الثواب والعقاب فى كل شىء ، فالذى أطلق لنفسه العَنان فى الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ فى الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم]

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمى من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقَب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ـ خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهى كافية لمن اعتبر بها ـ فهؤلاء لم يسيروا فى الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع فى الدنيا فضلاً عما سيقع فى الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين فى الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغى أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا فى الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٩﴾﴾ [الروم] لكن أنسير فى الأرض أم على الأرض ؟ هذا

من دقـة الأداء القرآنـى ، ومظهر من مظـاهر إعجـازه ، فـالظاهر أننا نسيـر على الأرض ، لكن التحـقيق أننا نسـير فى الأرض ؛ لأن الذى خلقنا وخلق الأرض قال : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

ذلك لأن الأرض ليـست هى مجـرد اليـابسة الـتى تحمل المـاء ، والتى نعيش عليهـا ، إنما الأرض تشمل كل ما يحـيط بها من الغلاف الجوى ؛ لأنهـا بدونه لا تصلح للعيش علـيها ، إذن : فـغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما فى الأرض .

والسير فى الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سـير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسـيْر يُعَدُّ سياحة للاستـثمار ، فالسير للاعـتبار أن تتأمل الآيات فى الأرض التى تمـر بها ، فـالجـزيرة العربيـة مثـلاً صحـراء وجبـال يندر فيهـا الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبـانيا مثـلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفى كل منهما خيرات ؛ لأن الخالق سـبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هـذه الأرض الجرداء القـاحلة والتى كـانت يشقُّ على الناس العيش بهـا لما صبـر عليها أهلها أعطاهم الله خـيرها من باطن الأرض ، فـأصبحت تمـد أعظم الدول وأرقاها بالـوقود الذى لا يُسْتغنى عنه يوماً واحـداً فى هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم فى عام ١٩٧٣ ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

حـين تسـير فى الأرض وتنـظر بعين الاعـتبـار تجد أنهـا مـثل (البطيـخة) ، لو أخـذتَ منها قطاعـاً طولياً فـإنه يتسـاوى مع باقى القطاعات ، كـذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اخـتلاف ألوانها ، فمجموع الخير فى كل قطـاع من الأرض يساوى مجموع الخيرات فى القطاعات الأخرى .

الجبال التى هجرناها فى الماضى وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هى الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية فى سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغى لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده ؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩) ﴾ [الروم] أى : الأمم التى كذَّبَتْ الرسل ، وفى آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ويخاطب سبحانه كفار قريش : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

أى : فى أسفاركم ورحلات تجارتكم ترونَ مدائن صالح وغيرها من القرى التى أصابها العذاب ما زالت شاخصة لكل ذى عينين .

ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر] وكانوا فى رمال

الأحقاف ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر] وهى الأهرامات ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر]

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمى نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حَلَّ بها ، إذن : لكم فى هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩) ﴾ [الروم] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركى قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

لذلك يقول بعدها : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. (٩) ﴾ [الروم] فالأمم المكذِّبة التى أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض . أى : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد غير ذى زرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلَّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدى مهمتها كما ينبغى ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات

ولا تعطى فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد فى التربة ، خاصة فى بداية الإنبات .

وفى موضع آخر يقول - سبحانه وتعالى - عن النبات : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

وفى قصة البقرة مع بنى إسرائيل لما تلكئوا فى ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ .. (٧١)﴾ [البقرة]

يعنى : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا فى حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا فى سَقْيها بعد أنْ تُحرث ؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعى لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففى هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى ﴿عَمَرُوهَا .. (٩)﴾ [الروم] أى : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التى جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقى والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرِّق هنا بين الزرع والغَرْس :

فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسه ويظل فترة طويلة يدر عليك ، فمحصوله متجدد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذر الحبِّ ، أمّا الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٩) ﴾ [الروم] فبعد أنْ أعطاهم مُقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٩) ﴾ [الروم] أى : الآيات الواضحات الدالة على صدْق الرسول فى البلاغ عن ربه وهذه التى نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صدْقهم فى البلاغ عن الله وهى المعجزات ، وآيات القرآن التى تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بيِّنة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ﴾ [الروم] نعم ، ما ظلمهم الله ! لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأتَّى الظلم من الله تعالى ؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان ؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما فى يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذى لا قدرةَ له على حماية حقه . فكيف إذن نتصور الظلم من الله - عز وجل - وهو سبحانه مالك كل شىء ، وغنى عن كل شىء ؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلنا لذلك ببئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فواحد يأتى إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبنى حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .

والحق - سبحانه وتعالى - خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتى الفساد إلا من تدخُّل الإنسان : لذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة]

وينبغى على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة ١٩٥٠ كنا ننتظر السَّقاء الذى يأتى لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها فى (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد فى وضوئه عن هذا الكوز ؛ لأننا نشترى الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكى يتوضأ من حنفية الماء . وفى ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحى وللمياه الجوفية التى تضر بالمبانى وبالتربة الزراعية .

لذلك يحذرنا النبى ﷺ من الإسراف فى استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جار[1] .

فمعنى الذين أساءوا : أى الذى جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعى أن تكون عاقبته من جنس فعْله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ .. ﴿١٠﴾﴾ [الروم] والسُّوأى : مؤنث سيء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهى أفعل تفضيل من السُّوء .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدَّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين ؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزىء بالمجتهد ، والمنحرف يستهزىء بالمستقيم ، لماذا ؟

لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد فى اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين]

لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم فى الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مرَّ بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال : أفى الوضوء إسراف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جار . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٢١) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) .

آمنوا من الْكُفَّار يضحكُون (٣٤) على الأرائك ينظرُون (٣٥) هل ثُوِّب الْكُفَّارُ ما كانُوا يفْعلُون (٣٦)﴾ [المطففين]

والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء في الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم ؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزّ الطاعة ، وهو فى جميئة المعصية ؛ لذلك يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم ما زال يبدأ الخلق ؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذى خلق بَدْءاً ، فهو الذى يعيد ﴿ الله يبْدأُ الْخلق ثُم يُعيدُهُ .. (١١)﴾ [الروم]

وفي أعراف البشر أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه ؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أمّا الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وهُو الّذى يبْدأُ الْخلْق ثُمّ يُعيدُهُ وهو أهْونُ عليه .. (٢٧)﴾ [الروم] أي : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكن فى الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون في حقه تعالي ؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما بكُنْ فيكون ، لكن يخاطبنا سبحانه علي قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً

إلى الزرع تحصيده وتأخذ منه التقاوى للعام القادم ، وهكذا في دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الروم]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطرية بما فيها من جمال في المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطِفَتْ جفَّتْ ، لأن المائية التى بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر في الأثير ، ثم يتفتت الباقي ويصير تراباً ، فإذا ما زرعتَ وردة جديدة أخذت من المائية التي تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التي في الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهي أخرى ؛ لأن مُقوِّمات الحياة التي خلقها الله هي هي في الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء في الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طناً من الماء ، هل تحمل معك هذا الماء الآن ؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن .. الخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] نلحظ أن الكلام هنا عن الخَلْق ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] ولم يقل يرجع أي : الخلْق ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون في بَدْء الخلق ولا في إعادته ، لكن يختلفون في الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بين بين ، ففي حال الرجوع إلى الله ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد في البَدْء وفي الإعادة ، وانتقل إلى

الجمع فى الرجوع إلى الله لاختلافهم فى الرجوع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى : يسكتون سُكوتَ اليائس الذى لا يجد حجة ، فينقطع لا يدرى ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب ، فلم يعُدْ لهم أمل فى النجاة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] ، ومن ذلك سُمِّى (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : لما نسوا منهج الله أراد سبحانه أن يعاقبهم فى الدنيا ، وحين يعاقبهم الله فى الدنيا لا يأخذهم على حالهم إنما يُرخى لهم العنَان ، ويُزيد لهم فى الخيرات ، ويُوسِّع عليهم مُتَع الدنيا وزخارفها ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أخْذه أليماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .

كما أنك مثلاً لا تُوقع عدوك من على الحصيرة ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون الانتقام أبلغ ، أمّا إنْ أخذهم على حال الضِّيق والفقر ، فالمسألة إذن هيِّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب !

ولنا ملحظ فى قوله تعالى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) ﴾ [الفتح] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] والفرق بيِّن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك ﴿ فَتَحْنَا لَكَ .. (١) ﴾ [الفتح] إنما على ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] فتعنى ضدهم وفى غير صالحهم ، كما نقول فى المحاسبة : له وعليه ، له فى المكسب وعليه فى الخسارة .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ (١٣) ﴾

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم ؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾ [البقرة]

وكذلك يقول التابعون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغَل كل منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع فى الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقى عليه بالمسئولية .

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التى تربط أهل الباطل فى الدنيا ﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) ﴾ [الروم] ولمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أى : الذين اجتمعوا فى الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون فى ناحية والكافرون فى ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم فى صفوفهم :

والتنوين فى ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] بدل من جملة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] أى : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وها هى الآيات تُرينا هذا التفصيل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] فما جزاؤهم ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] الروضة : هى المكان الملىء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب ؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ فى بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شىء عظيم ونعمة كبيرة . ومعنى ﴿ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] من الحبور[1] ، وهو الفرحة حينما

---

(١) قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون ؛ وقيل : ينعمون . قاله مجاهد وقتادة . والحبرة عند العرب : السرور والفرح . ذكره الماوردى . وقال الأوزاعى : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا وردَّتْ الغناء بالتسبيح والتقديس . [تفسير القرطبى ٥٢٦٨/٧] .

يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(١) ﴿١٦﴾ ﴾

المحضر بالفتح : الذي يحضره غيره ، ولا تُقال إلا في الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رغْماً عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه في كل أوقات اليوم والليلة ، في الصباح وفي المساء ، في العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنيٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد

(١) محضرون : مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : مُعذَّبون . وقيل : نازلون . والمعنى متقارب . [تفسير القرطبي ٧/٥٢٦٩] .

فى مُلْكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلْكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أنْ تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً فى اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التى ستقولها ، ثم هو الذى يُنهى اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفى أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذا لبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا لله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسى عِزّاً بأنّى عَبْدٌ   يَحْتَفِى بى بلاَ مَوَاعيدَ رَبّ
هُوَ فى قُدْسه الأعزّ ولكن   أنا ألقى كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ

ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهى قمة العزّ كله ، وفيها يأخذ العبد خير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه العبودية فى قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الروم] هى فى ذاتها عبادة وتسبيح لله تعنى : أُنزِّه الله عن أنْ يكون مثله شىء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فالله سبحانه مُنزَّه فى ذاته ، مُنزَّه فى صفاته ، مُنزَّه فى أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وقلنا : إنك لو استقرأتَ مادة سبح ومشتقاتها فى كتاب الله تجد فى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] وفى أول سورة الحديد : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] ثم ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء فى القرآن : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التي لا يسمع لها صوتاً ولا حساً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كان تسبيح دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : ففهمُك له غير حقيقي ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهي تُسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال في عموم الكائنات : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثل في ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهي لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التي تتكلم أنت بها .

لذلك تأتي كلمة (سبحان الله) في الأشياء التي يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئتْ قوله تعالى في الإسراء : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ .. (١) ﴾ [الإسراء] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر في هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود في ليلة واحدة .

---

(١) أوِّبي : ردِّدي الذكر والتسبيح مع داود . [القاموس القويم ١/ ٤٢] .

فبقانون البشر يصعُب عليك فهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ، وتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] وهم أهل اللغة لعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال « أسرى بى » ، فلا دخلَ له فى هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أسرى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك فى الزمان وفى المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التى ستقطع بها المسافة ، فالذى يسير غير الذى يركب دابة ، غير الذى يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان فى قوانين البشر : إذا زادت القوة قلَّ الزمن ، فكيف لو نسبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقدَّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبى ﷺ لمرائى كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هى التى استغرقتْ الزمن ، أمَّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) « أن أكثر الناس فى قريش قالوا : هذا والله الأمْر البيّن ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التى يقف عندها العقل ، وينبغى أنْ نُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية فى النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها فى الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها فى الحيوان ، هذه حدود العقل فى مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لأن المستقبل سيكشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية فى الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفى الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) .. الخ .

إذن : ساعة تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾

نلحظ أن قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [الروم] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] فى ناحية ، و ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾ [الروم] فى ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة فى اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ

تحمده على أنه مُنزَّه عن المثيل ؛ لأنها فى مصلحتك أنت ، وأنت الجانى لثمار هذا التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذى يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسجد ، لا تسجد لغيره ، فسجودك لوجه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذِى تَجْتويهِ[1] فيه مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ نَجَاةُ

إذن : من مصلحتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذى لا مثيلَ له ، والقوى الذى لا يوجد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كبرياءه يحمى الضعيف أنْ يتكبّر عليه القوى ، يجب أنْ تحمد الله الذى تعبَّدنا بالسجود له وحده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجاك بالسجود له أنْ تسجد لكل قوى عنك ، وهذا من عظمته تعالى ورحمته بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقول فى العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا فى عبوديتك لله .

والخَلْق جميعاً بالنسبة لله تعالى سواء ، فليس له سبحانه من عباده ولد ولا قريب ، فلا مؤثرات تؤثر عليه ، فيحابى أحداً على أحد . فنحن جميعاً شركة فى الله ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن] أى : لا شىء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعد التسبيح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ .. ۝١٨﴾ [الروم] لأن التسبيح

---

(١) الاجتواء : عدم موافقة الشىء للإنسان فتحدث كراهية له ، ومنها اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

ينبغي أنْ يُتبع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أي : الحمد لله على أنني سبَّحت مسبِّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التي أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهي المساء والصباح والعشي ، وهي من العصر إلى المغرب . ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية في كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأيّ صباح وأيّ مساء ؟ صباحي أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل في دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعني أن الله تعالى مُسبَّح معبود في كل لحظة من لحظات الزمن .

وفي ضوء هذا نفهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل »[1] فالكون لا يخلو في لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعني أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبض : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. (٦٤) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحيِّ من الميت ، وإخراج الميت من الحيِّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا :

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .